

رعاية الطفولة في الإسلام

للتربية الفاضلة الأستاذة
أسماء فهيم



درج أكثر
الناس في قياس مجد
الأم وحضارتها
بمقاييس شتى أهمها
النبوغ في الفنون
والمعالم، أو ارتقاء
النظم والقوانين،
أو التفوق الحربي
ووفرة الفنى
واتساع الملك
وقلما جملوا

رقى الأمة الوجداني وتقلل مبادئ الرحمة والإحسان فيها من
أول مقاييس الرقي الهامة . وما دامت هذه الناحية لا تلقى من
الدراسة والعناية ما يرجح كفتها ، ويرفع قيمتها ، لتكون الحجر
الأساسى فى بناء الحضارة ، فسيظل العالم ولا شك بعيداً عن
روح السلام والوئام

ولقد كان للحضارة الإسلامية أوفر الحظ من مبادئ العطف
والإنسانية التى تجلت فى نواح عدة من الحياة ، فظهرت مثلاً فى
معاملة المسلمين لسكان البلاد التى خضعت لسلطانهم مما أنشأهم
عدة أجيال مذلة الفتح ، كما ظهرت فى معاملة الرقيق والمرأة ،
وتجلت فى الرعاية العظيمة التى كان يماثل بها الأطفال . على أن
تلك الناحية الخطيرة التى يجب أن تعتبر بحق المقياس الأول للرقى ،
لم تنل كل ما تستحق من الاهتمام ، فلم تأخذ مكانة المقاييس الأخرى
بعد . وعلى ذلك فليس أنسب من أن ننتهز فرصة حلول العام
المهجري الجديد لندرس ناحية من نواحي الرقى الوجداني عند
المسلمين فى العصور الماضية ، فتتصرف اهتمامهم بشئون الأطفال ،
وتربيتهم للنساء ، لنسبر غور مبادئ الرحمة فيهم
لم يكن الاهتمام بشئون الأطفال مقصوراً على الدين الذى

حرم قتل الأبناء خشية الإملاق ، وصان حقوق النباى
وأموالهم ، ووضع القوانين للحضانة ، وقيد سلطة الأب على
أبنائه ، ورفع مكانة الأمة إذا أنجبت ولداً لسيدها فأصبحت
بسبب وليدها فى مأمن من البيع والشراء ؛ بل إن موضوع
تربية الطفل ووجوب تعهده بالرفق والعناية لاقى أكبر الاهتمام
من كتاب المسلمين ومفكرهم . وإن روح الرفق لتبدو واضحة
قوية فى كل ما كتبوا . والواقع أن الشاعر العربى الرقيق الماطفة
لم يكن هو وحده الذى عبر بوضوح عن هذه النزعة الإنسانية
إذ قال :

وإنما أولادنا بيننا أ كبادنا نعيش على الأرض

بل إن الفيلسوف والمربى عالما الموضوع بنفس الروح . فلقد اهتم
بهذه الناحية نفر من أشهر مفكرى الإسلام مثل ابن سينا
والغزالي والمبدرى وابن خلدون . وسنشير إلى بعض آرائهم
تسجيلاً لناحية من نواحي الرقى الوجداني الذى تمتاز به الحضارة
الإسلامية عما سبقها من الحضارات كالحضارتين الأغريقية
والرومانية

فإن سينا يجعل أساس التربية مراعاة ميول الأطفال
واستعدادهم ، حتى لا يُرْفَق الأطفال بأعمال يصعب عليهم أداؤها
لأنها لا تجرى مع رغبتهم . وعلى ذلك فإن سينا يحترم الميول مهما
كانت متواضعة . كذلك عالج هذا الفيلسوف مشأكل التأديب بطريقة
يتجلى فيها الحزم المزوج بالرفق ، فرأى أن يجنب الصبي معائب
الأخلاق بالترهيب والترغيب ، والابتساع والابتساع ، والإعراض
والإقبال ، وبالحد مرة وبالتوبيخ مرة أخرى ، ما كان كافياً ؛ فإن
احتاج للاستعانة باليد لم يحجم عنها . وليكن أول الضرب قليلاً
موجماً كما أشار به الحكماء من قبل ، بعد الإرهاب وبعد إعداد
الشفاء . وهكذا لا يجعل ابن سينا القسوة والضرب أول وسيلة
للتأديب ، بل هو لا يلجأ إلى الضرب إلا إذا فشلت الوسائل الأخرى
ولقد حدد علماء المسلمين عدد الضربات التى توقع على الطفل بثلاث ،
كما عيّنوا المواضع التى يحدث فيها الضرب حتى لا يتعرض
الطفل للأذى

والغزالي الذى يعتبر حجة الإسلام ، والذى كان لآرائه أكبر
الأثر فى تفكير المسلمين فى العصور التالية ، يتكلم عن الطفولة
بمطف ورقة لاحد لها . فهو يصف الطفل بأنه « أمانة عند والديه ،

كذلك لم تكن رعاية الأطفال مقصورة على المفكرين والمشتغلين بالتربية، بل قام المحسنون بإنشاء المعاهد الخيرية لتعليمهم وحمايتهم. وكثير من الكتب الإسلامية تفيض بذكر الكتابات التي بنيت لتعليم البنات والسالكين وإطعامهم وكسوتهم. ولقد ساهمت المرأة المسلمة بقسط وافر في هذا الميدان، إذ يذكر المقرئ في كتابه المخطط أسماء كثير من النساء اللاتي قمن ببناء الكتابات وحسن عليها الأموال والأموال لتعليم أبناء الفقراء كتاب الله. وكثيراً ما كان يبني الكتاب بجانب المدرسة والبيارستان مما سهل بطبيعة الحال حصول الأطفال على العلم والملاج

وبلغ من عناية المسلمين بأمر الأطفال أن كلف رئيس الشرطة بتفقد أحوال الكتابات لمنع تعليم البنات الصغار أشعار الغرام والمجون مما قد يكون له أثر السيء في أخلاقهن، ولحماية الأطفال مما قد يصيبهم من قسوة المعلمين. وهكذا لم تقف الدولة موقفاً سليماً في أمر تربية الأطفال

من كل ما تقدم يتبين لنا مقدار تنقل مبادئ العطف والإنسانية في ناحية من أهم نواحي الحياة الإسلامية. على أن تقديرنا لمبادئ هذه الرحمة المتجلية في الاهتمام بالأطفال لا يجعلنا ننقض الطرف عن أن المسلمين لم يتخذوا الوسائل الكافية لحماية الطفولة ولسد حاجتها في النواحي المختلفة، فلم يكن لديهم مثلاً قوانين تحمي الأطفال من ضراوة بعض الأعمال التي قد تنوق غوهم، وتحديد السن التي لا ينبغي تشميل الأطفال قبل بلوغهم إياها؛ كما لم يحددوا سنّاً لبدء الزواج، فكانت الفتاة تزوج في سن مبكرة، وترهق بإوجبات الأمومة والزوجية وهي لم تزل بعد طفلة. كذلك لم تتوفر المنشآت الخيرية التي تكفي لسد حاجات الفقراء وذوي المعاهات. على أن ذلك النقص في وسائل العلاج لا يقلل من قيمة مبادئ العطف والإنسانية التي بنى عليها الإسلام، ولا تخفي روح الإحسان التي تفيض بها الحضارة الإسلامية، والتي ظهرت في ميدان الرفق بالأطفال

وإذا كان الغرض الأول من دراسة نواحي الحضارات الغابرة هو تفهم نواحي حياتنا الراهنة والوقوف على مقدار تقدمنا أو قصورنا، فأما لا نبال أن نشعر بالخزي من أنفسنا عند ما نستعرض أعمال السلف ونقارنها بجهودنا الضئيل على رغم ما لدينا من وسائل

وقلبه الطاهر جوهره نفيسة ساذجة... « ومن ثم يجب على ولي أمر الطفل أن يقوم بإرشاده بأمانة وإخلاص. وهو يوجب مراعاة شعور الطفل فيقول: « إن الطفل المستحي لا ينبغي أن يهمل، بل يستعان على تأديبه بحمائه وتمييزه »، كما يرى: « ألا يؤخذ الطفل بأول هفوة، بل يتغافل عنه ولا يهتك سره، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه »؛ كما ينصح للمربي: « أن ينظر في مرض المريض وفي حال سنه ومزاجه وما تحمله نفسه من الرياضة ويبني على ذلك رياسته »

والمبدري الذي عاش بمصر في القرن الثامن للهجرة يحمل حملة شمواء في كتابه (مدخل الشرع الشريف) على مؤدبي عصره، وينبئ على أولياء أمور الأطفال أنهم يقسون على الصبيان فيضربونهم بمصا اللوز اليابس وبالجرير. ويصر على أن يأخذ العلم الأطفال بالرفق ما أمكن. ولكن إذا اضطر المربي إلى أن يضرب الصبي على تركه الصلاة متى بلغ السن التي تجب ذلك، فلا بأس أن يضربه ضرباً غير مبرح، ولا يزيد على ثلاثة أصوات شيئاً إلا في حالات نادرة جداً. وهنا يحدد عدد الأصوات بعشرة، وهو الحد الأقصى. ولا ينسى المبدري أن يذكر المربي بتفاصيل عدة لا يخرج مرماها عن مراعاة المسلمين لشعور الأطفال. فهو ينصح المؤدب، مثلاً ألا يسمح للتلاميذ أن يحضروا غداءهم معهم إلى المكتب، أو يحملوا نقوداً لشراء ما يرغبون من الطعام، حتى لا يتألم الطفل الفقير الذي لا يمكنه مجاراة الموسرين في مظاهر يسرهم. وعلى ذلك فهو يفضل أن يرجع الأطفال أجمعون إلى منازلهم للغداء

ويرى المبدري أيضاً أن يلعب الأطفال لعباً جيلاً بعد انصرافهم من المكتب حتى تذهب عنهم آثار التعب والملل، وحتى يستأنفوا دروسهم بشوق واهتمام

ولقد عقد ابن خلدون في مقدمته الشهيرة فصلاً في أن الشدة على التلميذ مضرة بهم، ولا سيما في أصغر الولد. وذكر أن كل من كان مرباه بالسف والقهر من التلميذ أو الخدم سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحمل على الخبث والكذب، وفسدت معاني الإنسانية فيه... وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف